

الباب السادس

الملك الشمس

بين حدائق التويلرى الرائعة وقصر اللوفر بباريس ، يقع ميدان كاروسيل الفسيح تحف به طنف (بواكى) جميلة كانت فصل اللوفر بقصر التويلرى قبل أن يذهب هذا الأخير فريسة للنيران التى أشعلها فيه الثوار سنة ١٨٧١ .

يعيد ميدان كاروسيل إلى الأذهان ذكرى أجمل وأهمى الحفلات التى خلدها التاريخ كدليل على أعظم ما وصلت اليه عقلية البشر فى الابتكار والتنظيم ، وهى الحفلات التى أقيمت فى ٥ يونيو سنة ١٦٦٢ وظلت ، مدى سنوات ، موضع أحاديث الناس فى كل أنحاء فرنسا والدول الأجنبية تثير حسد وغيرة ملوك أوروبا ، ذلك لأن لويس الرابع عشر قرر أن يضفى على هذه الحفلات التى سيشرفها بحضوره كل ما فى طاقة البشر من مواهب وفنون لى تفوق أجمل وأروع ما سجله التاريخ القديم والحديث .

كان الناس جميعا يودون رؤية الملك الشاب : فالفرنسيون بدافع الإعجاب والحب ، والأجانب عن فضول وشوق وربما عن شيء.

من الخوف والرهبة . فقد استطاع هذا العاهل الشاب . وهو لما يتعدى الرابعة والعشرين من عمره . أن يقضى على المشاكل الداخلية العويصة وأن يوفق إلى زواج ناجح موطن للسلام ، وأن ينظم مالية البلاد . وأن يعمل على توفير أسباب السعادة والرفاهية للشعب جميعه . فبدت على الدولة ، التي أنهكتها الحروب الخارجية والحروب الأهلية ، دلائل الانتعاش والرخاء ، وكانت الغاية من إقامة حفلات ومباهج تتكلف الملايين من الجنيهات ترمى إلى جذب أكبر عدد ممكن من السائحين الأجانب ، وهذا ما فكر فيه وزير المالية ، كولبير ، الذى أدرك بثاقب نظره أن حضور السائحين إلى باريس سيدير على خزانة الدولة أكثر مما تنفقه على الحفلات وعلى الكاروسيل .

أراد لويس الرابع عشر أن يظهر فى زى أمبراطور روماني : فكان يرتدى سترة من الفضة الخالصة مطرزة بالذهب ومرصعة بقطع الماس النادر ، تعلوها باقة من نفس المعدن مكونة من أربعة وأربعين وردة من الماس متصلة ببعضها بمقابض من الماس ، وتربط هذا الدرع المتألى . ثلاثة أشربة مرصعة بمائة وعشرين وردة من الماس كبيرة الحجم كما كان يضع فوق رأسه خوذة من الفضة عليها أوراق من الذهب يزيها ماستان كبيرتان وعلى جوانبها اثنتا عشرة وردة من الماس يحيط بها شريط من اثنتى عشرة وردة أخرى وتعلوها مجموعة من الريش بلون النار .

وكان يتعل خفا من الديباج مقصبا بالفضة وموشى بالذهب ،

وكان حسامه من الذهب المرصع بعدد لا يحصى من قطع الماس لا يمكن معها رؤية الذهب . وكان تمتلئ صهوة جواد أصيل مزين بالريش الزاهى الألوان وعلى رأسه نجم من الماس .

وظهر الملك فى الحفلات بهذا الزى الرائع يحيط به أباطرة العجم والأتراك والهنود ورؤساء الدول والأمراء وكبار رجال الدولة ، وشاعت بين الناس هذه العبارة « أن أجزاء العالم الخمسة قادمة تودى فروض التجلة والولاء إلى أمبراطور الرومان » .

وبما استرعى الانتباه فى هذه الحفلات منظر جميل للشمس شوهد فى كل مكان ، على الأعلام والدور ، وعلى الجدران ، وعلى الأبنية وعلى برادع الجياد . كان منظر الشمس الفاتنة إما مرسوما أو منسوجا على الأعلام أو محفورا على الجدران . ولا تزال هذه النقوش ظاهرة للعيان حتى الآن فى قصر فرساي .

وقد أبدع الفنانون أيما إبداع فى إعداد الرسوم والنقوش واللوحات للشمس ، التى اعتبرت كرمز عن الملك ورجال عصره . وبذلك أطلق على لويس الرابع عشر اسم « الملك الشمس » .

انتقد خصوم الملك هذا الشعار الذى اختاره لنفسه وعدوه دليلا على الكبرياء . فدافع أنصاره عنه بأن فى هذه الاستعارة صورة حقيقية لعهد من عهود الحكم الذهبية النادرة ، فقرص الشمس يرمز إلى الملك كما ترمز الأشعة إلى العطاء النابغين فى كل ميادين النشاط البشرى ، وهم الذين عاصروا الملك وعاونوه وكونوا معه مجد وعظمة

فترة طويلة من الزمن ، تعتبر من أزهى عصور التاريخ ، كما كانت عصور بركليس وأغسطس قيصر وليون العاشر .

وعارض آخرون في هذا الرأي فقد اعتقدوا أن الملك لم يبلغ هذه الدرجة من العظمة والتجدد بشخصه ومجهوده وحده ، وإنما بفضل العلماء والأدباء والفنانين ورجال الفكر والرأي والقواد والخطباء الذين عاشوا في عهده ولكن رجال الحاشية الملكية في فرنساى دحضوا هذا الزعم بقولهم : إن الفضل يعود إلى الملك وحده لأنه عرف كيف يشجع العلماء الذين عاصروه وأحاطوا به . فكان هو الشمس وكانوا هم أشعتها .

والواقع أن عصر لويس الرابع عشر لم يكن ليتجلى كذلك ، في نظر العالم لو لم تظهر فيه هذه المجموعة من الأفذاذ الموهوبين في كل أوجه النشاط البشرى . على أنه إحقاقاً للحق ، يجب ألا يغرب عن البال أنه لو لا الملك الذى عرف كيف يشجعهم ويمجد أعمالهم ويجمع شملهم ويوجد الانسجام والتعاون بينهم ، لما استطاعوا بلا شك أن يفيضوا هذا النور الذى أضاء فرنسا والذى لن يخبو ، طالما أنه يوجد في هذا العالم من يرغب في التزود من ثقافة مستنيرة أو رأى مستنير ،

وهنا يتجه الفكر إلى مؤلفات راسين وموليير وأعمال ايران وريشار وغيرهم . ولكن قبل ذلك يجب القول أنه لو لا حماية لويس الرابع عشر لهم ووصاياه وتعاليمه وحبه للأداب والفنون

وعقليته المستنيرة ، واهتمامه برفع المجتمع لما استطاع أحد منهم أن يستغل مواهبه ويشجذ قريحته وعبقريته إلى الحد الذي وصل إليه .
ولما كان تألق هذا النور مما يهر الأَبصار ، فقد كان كل واحد منهم يعمل للجموع . فآلفوا جميعا وحدة لا تنقسم ، وهو ما مثله الشمس بأشعتها ، فلا توجد شمس بلا أشعة ، ولا أشعة بلا شمس
وهنا نعرض هذه الأشعة التي تمثل رجال الفكر والفن والعلم
والتي أوجدتها الشمس التي ترمز إلى لويس الرابع عشر

لقد تجلّى نبوغ كولبير في الشؤون المالية والاقتصادية فقام بإصلاحات عمرانية كان لها أثرها في حياة الشعب وبما يجدر ذكره أن باريس كانت قبل عهد كولبير أقل مدن العالم أمناً وسلاماً ، كان التسول مهنة منظمة ، وكان المتسولون والمشوهون سواء عن حقيقة أو مجرد ادعاء ، يصطفون بشكل مفزع في كل مكان ، فألف كولبير بوليساً خاصاً جمع المتسولين وأوجد لهم أعمالاً يتكسبون منها ، وأنشأ المستشفيات والمصحات وملاجئ للعجزة جعلها على عاتق الكنيسة تنفق عليها من ريع الأملاك المخصصة لها ، وأضاء باريس كلها وهي التي لم يكن فيها إلا شجرة واحدة موضوعة في مصباح مقام في ميدان شاتيلية

وقام كولبير بعمل جليل آخر ، وهو جمع كل القوانين والعادات التقليدية في مجموعة واحدة منسقة سميت بإسمه كود لويس ، لا يزال معمولاً بها أكثرها الآن بعد تعديل طفيف يتمشى مع روح العصر .

ولم ينس كولبير أن الزراعة هي مصدر الثروة والرخاء ، فعنى بها بتعزيد قوى من الملك ، وعمل على تيسير أسباب الحياة للفلاحين وبذل مجهودات جبارة لتيسير الشئون الاقتصادية ونقل الحاصلات والبضائع بأن أصلح شبكة الطرق الزراعية التي كانت خربة تماما ، وحفر الترع ، ومنها قنال البحرين التي تربط المحيط الأطلسي بالبحر الأبيض . ووضع تصميم المشروع المهندس العبقرى ، د ريكيه ، وأحيا البحرية التجارية الفرنسية ، وخماتها أنشأ أسطولا حريا قويا وموانئ جديدة وأصلح الموانئ القديمة واهتم بالمستعمرات مثل كندا والانتيل وتيرينف (الأرض الجديدة) ومدغشقر . وأما المستعمرات التي يوجد فيها الرق فوضع لها القانون الأسود الذى يخفف إلى حد كبير القيود المفروضة على الزوج ويهيء لهم سبل الحياة .

ولم يقصر كولبير اهتمامه على الزراعة فحسب بل عنى كل عناية بالصناعة أيضا لأنه لم يرض أن يرى فرنسا تعتمد على الخارج فى استيراد كثير من المصنوعات ، فأوجد الصناعة الفرنسية ، فظهر مصنع بوقيه المشهور للفروشات ، ووجد مصانع جوبلان المعروفة فاستأنفت أعمالها بكل نشاط وازدهرت صناعات جديدة فى كل أنحاء فرنسا .

وقصارى القول أن كولبير أحدث انقلابا اقتصاديا سلبيا ، فأصبحت فرنسا دولة صناعية كبيرة لا تكفى نفسها فحسب بل وتصدر منتجاتها إلى الخارج .

ولا يجب أن ننسى في هذا المقام فضل دلو قوا ، في تنظيم الجيش والإدارة الحربية فقد فرض النظام والطاعة في الجيش ، وقرر الزي الرسمي الإلجبارى لكل الرتب ووضع قواعد الترقية للضباط ، ونظم وسائل التموين وإنشأ المستشفيات الحربية الثابتة والمنقلة .

ولا يفوتنا أن نشيد بكفاءة (ليون) في الشئون الخارجية التي أدار دقتها بكل فطنة ودراية تحت إشراف الملك الشخصي ، وأظهر مقدرة نادرة ومعرفة واسعة ، فجعل لفرنسا مكانة محترمة في نظر كل الدول الأجنبية .

واشتهر من قواد هذا العصر ككونديه وتورين والماريشال دى لكسمبرج ، والماريشال دو كاتينا ، الذي كان يسميه جنوده الأب المفكر ، لأنه كان يعد العمليات بمنتهى الدقة الحربية مهما كان شأنها ، والماريشال فايير وكان من أصل وضع واستطاع أن يصل الى أرفع الرتب العسكرية لاستقامته وشجاعته وكفاءته ومواهبه ، والماريشال دوفيلار الذي أنقذ فرنسا عندما تحالفت ضدها أوربا كلها وعزمت على إهلاكها ، كما استطاعت البحرية الفرنسية أن تحرز انتصارات رائعة على أعظم قوتين حرييتين في العالم في ذلك الوقت وهما إنجلترا وهولاندا ، ويرجع الفضل في ذلك إلى القواد البحريين المحنكين الذين نذكر منهم دوكنين ، والكونت دى تورفيل الذي أصبح ماريشال فرنسا ، وجار بار وكان ابن بحار فرنسي من ديب ورقى الى رئيس أسطول ورفع الملك إلى مرتبة النبلاء لأنه في موقعة واحدة أحرق

ثمانين سفينة انجليزية وقتل بيده أمير الا من الأعداء . ودوجين تروان
وكان من أسيرة تشتغل ببناء السفن في سان مالو ، وأصبح رئيس عام
الأسطول وتآق نجمه في كل البحار .

وفي ميدان الأدب والفنون أولى لويس الرابع عشر الأكاديمية
الفرنسية التي أنشأها (ريشيليو) كل اهتمام ، وأسس الأكاديمية الصغيرة
التي أصبحت فيما بعد أكاديمية الخطوط والنقوش الجميلة . وأكاديمية
الحفر والعمارة ، ولم يكتف بتقرير معاشات الأدباء والفنانين لحسب
بل ساعدهم ووجههم التوجيه الصحيح المنتج ، ومنح إعانات ومعاشات
ومرتبات لعلماء وكتاب وفنانين ومثاليين في خارج فرنسا .

ونذكر أنه لما نال الفلكي الإيطالي فيثيانى عطايا لويس الرابع
عشر ، شيد في فلورنسا بيتا كتب على واجهته بأحرف من ذهب
هذه الجملة :

« بيت من هبة الله ، (إشارة إلى اسم الملك الأصلي ، وهو لويس
هبة الله .)

لم تكن هبات وعطايا الملك ترمى فقط إلى تشجيع العلوم
والآداب والفنون في أوربا بل إلى أكثر من هذا ، فإن لويس كان
يطمع من وراء ذلك إلى أن يوجد لفرنسا خارج تخومها كثيرا من
الأصدقاء والمعجبين من ذوي النفوذ بحيث يكون لصوتهم المسموع
بين مواطنيهم ، ودعائهم لفرنسا ما يجلب لها عطف ومحبة

وإعجاب كل الدول . إذ لم يكن يخفى عليه أهمية وقوة الراى العام
الدولى .

وأما أصحاب المجد الأدبى والفنى فكان فى طليعتهم الشاعر « كورينى » ،
الذى بلغ الذروة بدرره الرائعة : السيد وهوراس . وكذلك
المؤلف المسرحى راسين الذى تعهد التراجيدى بفنه وموهبته
فكانت مسرحياته الرائعة الخالدة التى تمثل بنجاح هائل فى مسرح
أوتيل دى بورجونى تجذب إليها الأسرة المالكة ورجال الدولة ،
وعين الملك لراسين معاشا ثابتا وأجزل له العطاء وعهد إليه بوظيفة
فى القصر وبذلك كان دائم الاتصال بالملك والبلاط .

وكان الشاعر مولير مؤلف الكوميديى الذائع الصيت موضع
رعاية وتشجيع الملك . ومثل أمامه كل كوميدياته الانتقادية منها .
البجيل . تارتوف . مدرسة النساء . طيب رغب أنفه وكان فى أوقات
العسر والضيق يجد لدى الملك المساعدة والعطف والحماية من أكبر
الشخصيات نفوذا فى الدولة والذين كان ينتقدهم بمرارة لاذعة .

ويأتى بعد ذلك بوالو ، ثم شارل بيرو مؤلف القصص الثقافية
للشباب . وكان موظفا فى مصلحة المبانى وتركها واشتغل بالأدب ،
وهو الذى أوحى إلى شقيقه كلود بمشروع أعمدة اللوفر ،
ولافوتين مصنف الحكايات الخرافية ، ومدام دى لا فاييت مؤلفة
القصة المشهورة « أميرة دى كليف » ، ومدموازيل « دى سكودرى » ،
التي وجهت الشعب إلى القصص الجغرافية عن بلاد تاندر ، والعالم



کورنی
Corneille



راسین
Racine



مولییر
Molière



لا فونتين
La Fontaine



فيلنون
Fénelon



بوسيه
Bossuet

اللفوى ، فوجلا ، ولارشفو كوصاحب الحكم والأمثال ، والفيلسوف
ما ابرانش والشاعرين رينار وشايلان .

ويفخر العصر أيضاً بالخطيب المقوه ، بوسويه ، الذى ملك زمام
الخطابة واكتسح أمامه المشعوذين والخطباء المأجورين المدنسين وأصبح
مؤدب ولى العهد ، ويزهو أيضاً بالأديب فينيلون مؤدب دوق دى
بورجوني ، ومؤلف قصة ثلياك — وهامى متاحف فرنسا وقصورها
تشيد بعظمة وفن بوسان ولزوير ولبران الرسام الأول للملك ومدير
أكاديمية النقش والرسم ومدير جوبلان وميشار ، وديجو ، وفانو
ولوان ، وفيليب دى شامبانى .

وأعظم مثالى العصر سارازان وبوجين وجيراردون وكويسيفو
وليكوستر .

وفى الموسيقى «لولى» ، وقد بدأ حياته خادماً لدى إحدى الأميرات
ثم التحق بفرقة الموسيقى الخاصة بهذه الأميرة ثم فى موسيقى الملك
وأصبح مديراً الأكاديمية الملكية للموسيقى ، وكامبار مؤلف كثير
من الأوبرات الخالدة ، ودستوش ، وقد جدد هؤلاء فن الموسيقى
وفى فن المعمار «ليقو» الذى بدأ قصر فرساي ، ومانسار الذى
أتمه ، والأخوان بيير ولنتز ، المختص فى نقش مباني المتزهات وكان
فى أول أمره بستانيا نابغاً وعنى بتجميل وتنسيق متزهات فرساي
وسان كلو ، ومارلى ، وفونتنبلو .

قد نال هذا الرجل شهرة عظيمة فى فنه فلم يكن الفرنسيون

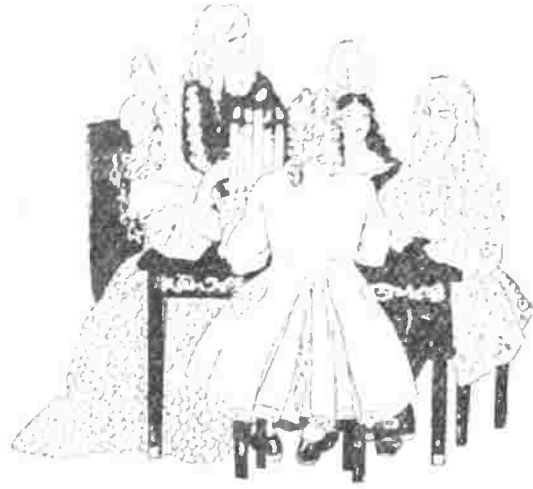
وحدهم هم الذين يتنافسون في جذبهم للعمل في تنسيق حداقتهم بل
إن إيطاليا كانت تزهو وتفخر بفنهم ومواهبهم ، فدعته إليها للعمل لدى
الابا فرحل إليه بإذن من الملك

هذا هو عرض خاطف لعظام الرجال الذين شيدوا مجد فرنسا
وعظمة عصر لويس الرابع عشر ، فهم جديرون بأن يكونوا أشعة
الملك الشمس

الفصل السابع

الملك في فرساي

ما أبدع هذا المكان وما أجمله
أنتا هنا في موطن السعادة الحقيقية
« مدام دي مانتينون »



يجتذب قصر فرساي الآف السائحين من شتى أنحاء العالم لرؤية هذه الأعجوبة الفنية التي طبقت شهرتها الآفاق ، والتي تعتبر أقوى شاهد على مجد لويس الرابع عشر وعظمة عهده ، ولقد وضع الملك تصميم هذا القصر فأخذ كل الملوك ورؤساء الدول من القرن السابع عشر يقلدونه ويحذون حذوه ، ذلك لأن من يشاهد القصر لا يقف عند حد الإعجاب به وبمؤسسه ، بل يعود إلى وطنه وفي قرارة نفسه رغبة جاححة في إنشاء قصر على طرازه ، فقامت في معظم الدول قصور شاهقة على طراز فرساي ولو على نطاق ضيق ، وانما بعيدة

كل البعد عن أن تضارعه في أهبائه وعظمته . وهذا يدل على مدى تأثيره في نفس كل من يزوره ويتأمل فنه ونقوشه الخلافة ، ولكن يجب أن يعلم أن الملك لم يكتف بإصدار أمره إلى مهندسيه بالعمل والبناء بل فعل أكثر من ذلك ، إنه راقب وأعد بنفسه كل شيء ، فلم تفته أدق التفاصيل في هذه العمارة الهائلة التي رسم مشروعها بيده وحدد نوع المواد التي أراد أن تستعمل في كل جزء منه .

لم تبدأ إقامة الملك الرسمية في قصر فرساي إلا في سنة ١٦٧٠ . وقبل ذلك التاريخ كان يمضي فيه فترات متقطعة أما لتغيير الهواء كما فعل عقب إصابة الملكة بالحصبة سنة ١٦٦٤ وأما لإقامة الحفلات الرائعة فيه ، وأخيرا قرر أن ينتقل إليه نهائيا ومعه أسرته وحاشيته ، كما نقل إليه مقر الحكومة .

لم يكن في فرساي قبل ذلك أي شيء سوى قصر لويس الثالث عشر الصغير . ولم يكن هناك ماء أو مساكن أو حدائق ، فأعد لويس الرابع عشر فرساي إعداداً رائعاً ، ووضع الآلات لجلب الماء إليه من مارلي ، فاقبل الناس من تلقاء أنفسهم ليقیموا حول الملك ، فشيدوا الدور والمباني والملاهي ، حتى ظهرت مدينة فرساي العظيمة التي لا تزال قبلة أنظار السياح الأجانب .

كان لويس فنانا بطبعه محبا للأزهار والأشجار والطيور والمياه الجارية فعنى عناية كبيرة بتنسيق حدائق فرساي لكي تصبح أجمل حدائق العالم ، فأكثر من أحواض المياه وغرس الزهور ، والأشجار

الجميلة ورأى أن يشمو في كل مكان الياسمين والزنبق والورد وأشجار
البرتقال والليمون ، وأن توضع أقفاص للطيور النادرة الزاهية
الألوان .

وأحاط نفسه في هذا القصر بأسرته وحاشيته ووزرائه بمكاتبهم
وموظفيهم ، ومنه أرسل البريد الى أقصى أنحاء المملكة وإلى العواصم
الأجنبية فأصبحت فرساي عاصمة سياسية أسست في وقت لا يوجد فيه
تليفون أو تلغراف أو سيارات أو سكة حديد .

وكانت حياة الملك في فرساي تسير على نمط ثابت تبعاً لنظام
لا يتغير مهما كانت الظروف ، وصفها الكاتب سان سيمون بكلمة
الميكانيكا الملكية . وفي هذا الوصف ما يدل على أن الحياة كانت
عبارة عن آلة حقيقية ، استمرت على العمل حسب النظام الموضوع
لها ، الى أن لفظ الملك أنفاسه الأخيرة .

ففي الساعة الثامنة صباحاً — صيفاً وشتاء — كان خادم الملك
الخاص يدخل غرفة نوم ذلك العاهل العظيم ويرفع الستائر عن النوافذ
ويتقدم نحو سريره ويقول : مولاي ! لقد حل الموعد . ثم يفتح
الباب فتدخل المربية وتقرب من الملك وتقبله في وجنتيه إيذاً نا بحلول
النهار وابتداء العمل ، ثم يأتي الطبيب الخاص والجراح يتبعهما خدم
يسمون « الخدم الزرق » نسبة إلى السترة الزرقاء التي كانت تميزهم ،
فيغسلون وجه الملك وجسمه بالماء المعطر ويغيرون ملابسه ، وعند

ما يتمون عملهم ، يأتي كبير الأمناء ويقدم لمولاه الماء المقدس والكتاب المقدس فيصلي ويقرأ إنجيل اليوم

وبعد الصلاة يفد الأمراء والمقربون من الملك فيجاذبهم أطراف الحديث وهو مرتد رداء النوم وعلى رأسه خصلات من الشعر المستعار وتوجد له صور كثيرة تمثله في هذا الوضع ، وقد اعتاد استعمال الشعر المستعار لأنه أصيب بالصلع وهو في سن مبكرة واقتدى الرجال بملكهم فأخذوا يزينون رؤوسهم بالشعر المستعار ، فأصبح من مستلزمات الحياة

وكان الملك يبالي في العناية بنظافته في وقت كانت النظافة فيه بدائية تماما ، ذلك لأن القرن السابع عشر لم يعرف القواعد الصحية ، فلم هذا اعتبر أنظف رجل في المملكة ، لأنه كان يأخذ حمامات ساخنة يوميا ، وهذا ترف لم يكن ميسورا إلا لأفراد قلائل .

وبينا يأخذ الملك في ارتداء ملابسه الرسمية ، يدخل كبار الموظفين المتصلين به ومعهم من يسمح لهم بإذن خاص بالدخول في الغرفة الخاصة ، فيكلم كل واحد منهم ، فينصرف عندما تنتهي مهمته ، ثم يأخذ فترة راحة قصيرة يستقبل فيها مهندسيه ، ومنظم حدائقه الفنان « لينوتر » ، ولهؤلاء حرية الدخول عليه في أى وقت دون حاجة إلى إذن أو مراعاة قواعد العرف والأنيكيت .

وبعد الانتهاء من هذه المقابلات والأعمال يتوجه الملك الى كنيسة القصر للصلاة ، ولا ينسى إداء هذا الواجب إلا عندما يكون

فى الحرب خارج فرنسا فى وفى طريقه إليها يتقدمه ضباط الحرس ويسرع إليه رجال البلاد وأصحاب المطالب الخاصة فيدون منه ويلقون على مسامعه بطلباتهم وشكاياتهم ، فيرد عليهم بقوله : سأرى — سأرى . وكان بالفعل يرى ويفحص كل شيء فلم يهمل فى حياته أى طلب أو مظلمة أو شكوى لقوة ذاكرته ومعرفة — لكل شخص من موظفى فرساي ، وكان يحدث أن يرى بعض الأفراد القليلى التردد على قصر فرساي . فيتعطف عليهم قائلا : لماذا لا تراكم هنا كثيرا ، كما لا يفوته أن يعاتب الموظفين الذين يتركون مراكز وظائفهم فى المدن البعيدة ويحضرون إلى فرساي دون داع ، ولو أنه كان يحب أن يرى حوله كبار موظفى الدولة من حكام مقاطعات ومأمورى أقسام ، لأن التنظيم الإدارى فى ذلك الوقت كان لضعفه يتطلب أن يعرف الملك شخصا كل واحد منهم ، ويلم بفضائله وعيوبه دون وساطة رؤساء فكان يعرف دولاب العمل فى كل أنحاء المملكة .

وعندما تنتهى الصلاة يعود بنفس الموكب إلى مكتبه حيث يجتمع بالوزراء وقد يستمر اجتماعهم حتى الساعة الواحدة ، وهى ساعة الغذاء وفى أيام العيد يتقدم هذا الموعد ، ويتناول فى وجبة الغذاء ثلاثة أصناف وبعض الفاكهة ويشرب قليلا من الشمبانيا أو نبيذ بورجونيا المشهور .

وبعد الغذاء يغير ملابسه ويخرج أما للصيد أو للتنزه فى حدائقه أو لتفتيش المباني .



لويس الرابع عشر يتنزه في حدائقه

وفي شبابه كان يصيد الطيور وهو على صهوة جواده ، ولكن
بعد أن كسر ذراعه عند ما وقع ذات مرة ، فضل أن يستعمل عربة
صغيرة تجرها أربعة جياد يقودها بسرعة فائقة ومهاره عجيبة ، وكان
ماهرًا في التصويب وإصابة الهدف .

وفي العودة يغير ملابسه مرة أخرى ويستقبل رجاله أو يعمل
في مكتبه حتى الساعة العاشرة مساءً وهي ساعة العشاء الذي يتناوله

مع الأسرة — وبعد ذلك تقام حفلات متنوعة من تمثيل مسرحية
هزلية من مسرحيات مولير أو حفلة راقصة أو موسيقى أو ألعاب
مختلفة تستمر إلى وقت متأخر من الليل .



لويس يسطاد

وفي الليالى التى تخلو من الحفلات كان الملك يعضى إلى مكتبه ،
ويسمر مع أفراد أسرته ويذهب إلى فراشه حوالى نصف الليل وعلى
هذا المنوال سارت حياته لا فى فرساي وحدها فحسب بل عندما كان
يذهب إلى فونتنبلو ، أما فى قصر مارلى فإنها كانت تتمحور من بعض
هذه القيود .

وظل لويس طول حياته مصابا بمرض خطير ، يعرف فى عالم

الطب باسم ، الدودة الوحيدة ، ولم يستطع أطباؤه شفاؤه منها ، مع أنه عاش إلى سن السابعة والسبعين . فقد ثبت فيما بعد أنهم أساءوا علاجه وكانوا أربعة أطباء وصفوا بالجهل ولم يغب جملهم هذا عن ذهن المؤلف المسرحي مولير ، فعند ما تقرأ الكوميديا التي كتبها عن جهل الأطباء نرى أنه لم يغال فيما كتب .

وكان لويس الرابع عشر يستقبل سفراء الدول الأجنبية بكل مظاهر العظمة والجلال ، فيجلس على أريكة فاخرة يحيط به الأميرات والأمراء والوزراء وكبار رجال الدولة ، لكي يؤثر في نفس السفير الأجنبي من جهة ، ومن جهة أخرى تجعله يعدل عن التفكير في الإقامة في فرساي على أساس رفع الكلفة بينهما ، وهذا من الأمور التي يمتقتها الملك لأنه كان يخشى من ورأئها إفشاء أسرار قد ينجم عنها مالا محمد عقباه .

وكان الملك يكثر من الرحلات إلى مختلف أنحاء فرنسا ، وقد قادته هذه الرحلات إلى مسارح العمليات الحربية ، وعندما تقرر ضرورة توخي الاقتصاد في النفقات ، وافق الملك على التماس « لوقوا ، الخاص بالعدول عن التنقلات ، فلم يعد يذهب إلا إلى فونتنبلو وشانتي وكومين ومارلي وفيدون ، لأنه كان في رحلاته يصحب معه كثيراً من السيدات يأخذ معه كميات كبيرة من الأطعمة والمشروبات وهذا يستلزم عدداً كبيراً من العربات والحرس والخدم فيتطلب نفقات ماهرة .

وامتاز الملك بالطيبة والنبيل والعطف ، حتى أصبح مضرب
الأمثال ، فإنه لم يكن يتوان عن السؤال عن الضباط والجنود الذين
يصابون أثناء خدمتهم له ، وكتب مرة إلى قائد جيشه الرسالة
التالية :

« اعتنى كثيراً بالمرضى والجرحى ، وعبر لهم عن شعورى وعواطفى
نحوهم ، وطمأنهم على حالهم وعلى أن جراحهم ستكون على الدوام
خير تزكية لهم عندي ، وعليك أن تمنح كل جندي علاوة ، وأريد
أن أعرف أسماء الممتازين منهم والذين أظهروا بطولة تستحق الذكر
وكذلك أسماء المشوهين والمعجزة . »

فشيّد الأثقاليد للعجزة والمشوهين ، وفي أيام القحط والعوز كان
يشترى الحبوب لتوزع مجاناً على الفقراء .

وكان لويس جم الأدب يحتمل النقد ويحب أن يحذو حذوه جميع
المتصلين به . فقد حدث ذات يوم أن قدمت إلى فرساي سيدة ريفية
مسنه ، وعندما شوهدت أثناء ذهاب الملك إلى الكنيسة ضج الجميع
بالضحك ، ولاحظ الملك ذلك ، فلم يقل شيئاً ولكنه عندما وصل
إلى السيدة الريفية وقف وانحنى أمامها ، فكان درساً لمن تهكوا عليها .
ويروى قوالبير القصة التالية :

رأت دوق بورجويتا أثناء العشاء مع الملك ضابطاً دميماً فضحكت
طويلاً من دمايته — ولكن الملك اسكتها بأن قال لها بصوت عال :
اننى أجده بأسيدتى من أجل رجال الدولة لأنه من أشجع شجعانها

وحدث أثناء العمل في قصر مارلى أن فقدت امرأة عجوز تدعى د بارب كورنييه ، حمارها الذى توجره للعمال ، فلما علم الملك بذلك اهتم بهذا الموضوع كعادته وأمر بأن تعطى للمرأة تعويضاً عما فقدت ، فجاء فى حسابات القصور الملكية هذه النبعة : د اجنيها إلى بارب كورنييه التى نفق حمارها أثناء العمل فى مارلى ، أما الحفلات الرائعة التى كانت تقام فى قصر فرساي ، فانه فى قاعاته الفسيحة كانت أضواء مئات الشموع الكبيرة فى الثريات الهائلة المصنوعة من بلور مدينة البندقية ، تبهر الأبصار حقاً ، وكان هذا الضوء المنعكس على جمهور السيدات والرجال فى ثيابهم الفاخرة من القطيفة الموشاة بالذهب والفضة يعطى منظراً يأخذ بمجامع القلوب ، وعندما يعلن الضابط قدوم الملك يسود صمت رهيب ويحضر الملك ويجلس فى مقعده الوثير فتبدأ الملاهى وكانت عبارة عن تمثيل من فرقة الكوميدي فرانسيز ، وأحياناً الموسيقى أو الرقص أو الباليه

وعرف الملك بالمهارة فى الرقص وكان يشترك فيه أيام شبابه ، ويروى عنه أنه استمر مرة يرقص طول الليل ومع ذلك لم يتأخر لحظة واحدة عن أعماله وواجباته فى اليوم التالى فى مواعيدها المحددة بما أثار دهشة الغرباء عن القصر

وكانت ضروب اللهو والتسلية متنوعة فى فرساي ولم يكن مسموحاً لأحد أثناء اللعب والمرح بالكلام فى الشؤون العامة وفى السياسة . ومن المناظر الجميلة فى الحديقة منظر الترع التى تنساب عليها قوارب

الجنود ولا ، تزينها الأنوار البديعة وتعزف فيها الموسيقى وفيها السيدات والرجال ، بينما تقام على الشواطي ألعب نارية تخرج منها أنوار متعددة الألوان تعلو في الجو وتتعاقد ، فيحدث انعكاسها منظراً فاتناً يضئ على التماثيل المقامة تحتمها ابتسامة خلابة يعجز القلم عن وصف روعتها .

ومما يؤثر عن لويس الرابع عشر حبه الشديد للمدح والإطراء والملق ، فنغتنى كل المتصلين به في إلقاء عبارات الثناء والإعجاب على مسامعه لكي يحظوا بعطفه ورضاه ، فكان يعتبر هذا المدح من مستلزمات حياته كالهواء والماء والطعام ، لا يستطيع أن يعيش بدونه حتى قيل : « إن الملك يغره الثناء » ولا بأس من ذكر بعض النوادر :

كان الملك يتنزه ذات ليلة في حدائقه فرأى طريقاً تحف به أشجار بدون تنسيق مما جعل المنظر مشوهاً ، وكان يرافقه دوق أتان مدير القصور الملكية ، وفي صباح اليوم التالي توجه الملك إلى نفس الطريق فلم يجد للأشجار أثراً فاستدعى الدوق وسأله عما حدث ، فأجاب بكل زهو قائلاً : كيف اجترأ هذا الطريق على الظهور أمام جلالكم وهو في حالة مشوهة ، لا شك أنه لم يعجبكم لأنكم يجب ألا تقع أنظاركم إلا على كل ما هو جميل .

وكان الملك يتنزه ذات يوم في حدائق مارلي مع الأب بولينياك ، و فجأة اكفهر الجو وأخذ المطر يتساقط فقال الملك للأب إنه يريد العودة إلى القصر لئلا يتسخ رداءه الجميل من المطر

فما كان من الأب بولينياك إلا أن قال بكل بساطة : لا داعي للعودة يا مولاي لأن مطر مارلي لا يبلل ملابس الملك .

واهتم الملك بالشعر والقصائد في وقت ما وأخذ ينظم بنفسه بعض
الآيات فألف قصيدة غزل رأى أنها كثيرة الأخطاء ولا معنى لها .
وبينما كان يقرأها مرة أخرى ، وصل الماريشال دى جرامون
وكان مشهورا ببراعته في التملق للملك حتى قيل عنه إنه أعظم متملق في
فرنسا ، فقدم له الملك القصيدة التي كتبها وقال :

افقرأ قصيدة الغزل هذه وقل لي بعد ذلك عما إذا كنت قد قرأت
في حياتك قصائد بمثل هذه السخافة والوقاحة ، فأنت تعلم أنني أنظم
أشعاراً ولهذا يبعث لي الكثيرون بقصائد وأشعار من كل نوع .

وبعد أن قرأها الماريشال التفت إلى الملك وقال : إن كلام جلالتم
مقدس بدون أدنى شك ، وحكم جلالتمكم على الأمور إنما هو حكم
مقدس حقاً ، فالواقع أن هذه أسخف وأوقع قصيدة قرأتها في حياتي .
فضحك الملك كثيراً وقال : ألا ترى أيضاً أن مؤلفها كثير
الإعجاب بنفسه وأحمق فأجاب الماريشال : إنه يا مولاي لا يستحق
غير هذا الوصف الدقيق

قال الملك : إنني مسرور حقاً لأنك تسكمت بكل صراحة ، فأنا
الذي نظمتها . ذهل الماريشال وقال : بالخيانة ، التمس من جلالتمكم
إعادتها إلي ، لأنني قرأتها بسرعة وبدون تروى . فرد الملك قائلاً :
كلا ، ياماريشال لن أعيدها اليك ، فإن الكلمات الأولى هي التعبير
الطبيعي لما يحول في الخاطر

وقد انتهج البلاط مما حدث للماريشال وانتشرت القصة في كل
فرنسا ، وأصبحت موضع حديث الناس وسرورهم

وكان الملك عندما يسأل أحد رجال الحاشية المدعو « دوز » عن الوقت يجيبه قائلاً : إننا في الوقت الذي يرضى جلالكم

* * *

ومنح دوق مين ذات مرة أجازته عن تلقى دروسه من مؤدبه بمناسبة الاحتفال بالانتصار في حرب ، فذهب يشكو إلى الملك قائلاً : مولاي ، إنني ما أصبح جاهلاً ، ولن أتعلم شيئاً لكثرة الأجازات التي تمنح لي في كل مرة تكسبون فيها معركة .

ولم يشذ عن خطة الإفراط في مدح الملك والتعلق إليه سوى « لينوتر » مدير الحدائق الملكية ، فقد كان رجلاً صريحاً جريئاً يجهل فن المداينة والملق ، ولم يفضب الملك من صراحته لأنه كان يجده على حق في كل ما يقول فلما عاد هذا الرجل من إيطاليا حيث انتدب للعمل في حدائق البابا ، صحبه الملك إلى حدائق فرساي ليريه طريقاً من الأشجار على شكل أعمدة أنشأه مانسار أثناء غيابه .

وكان لويس الرابع عشر هو صاحب الفكرة في إنشاء هذا الطريق وواضع نظامه وتنسيقه . وأراد أن يعرف رأى لينوتر . ولكن هذا الأخير ظل صامتا ، فدفعه الملك إلى الكلام ولكن بعد فترة صمت طويلة قال :

حسناً ، ماذا تريد يا مولاي أن أقول ، لقد جعلتم من هذا البناء بستانياً فأعطاكم صنفاً من حرفته .

لم يكتف الملك بقصر فرساي الهائل وبقصر مارلي البديع ، بل

أنشأ أيضاً قصر تريانون الرائع ، وكان يراعى أن تكون هذه القصور تحفاً فنية خالدة تشهد بعظمته ، ولهذا تفانى في العناية بها ، وأبدع في تنسيق وتنظيم حدائقها بما وضعه فيها من تماثيل ، وجباليات وشلالات ، وأزهار نادرة ، وطيور جميلة ، وكان يتعهد بها بنفسه ويشرف على كل كبيرة وصغيرة فيها .

وأقيم له وهو على قيد الحياة تمثالان كبيران في باريس ، وضع أحدهما في ميدان النصر والآخر في ميدان قاندوم .

وصنع التمثال الأول على نفقة المارشال «لافيا» الذي خصص أيضاً مبلغاً من المال لإضاءة مصابيح توضع طول الليل حوله ، وقد دمر هذا التمثال سنة ١٧٩٠ وكان عند قاعدته أربعة تماثيل صغيرة لأربعة أرقام ، وتوجد هذه القاعدة الآن في الانقاليه . وأما الثاني فقد قدمته مدينة باريس تكريماً للملك .

الباب الثامن

أيام المجد

كان لويس الرابع عشر يكرس لتصرف أمور الدولة الوقت الذي حدده لها في برنامج اليومى ، ولم يقصر فى هذا الواجب لحظة واحدة بالرغم من ولعه بالصيد وإفراطه فى اللهو والمرح .
ورأينا أنه استطاع مع كولبير أن يخفض الضرائب ويزيد الإيرادات فعم الرخاء والثراء بين الشعب ، كما أنه أولى الشؤون الخارجية كل اهتمامه لتحظى فرنسا بالمقام الأول بين دول أوروبا ، وللتدليل على ذلك نروى حادثين وقعا سنة ١٦٦٨ وترتبت عليهما نتائج عظيمة الأثر .
حدث الحادث الأول فى لندن ويتلخص فى أنه حينما قامت السويد بتعيين سفير لها فى لندن ، رأى سفراء الدول الأخرى فى العاصمة البريطانية أن يستقبلوه بكل مظاهر العظمة والإجلال ، فكان لزاما على الكونت ديستراد سفير فرنسا والكونت دى فانفيل سفير أسبانيا أن يشتركا فى حفلة الاستقبال ، وفى اليوم المحدد توجه كل سفير فى موكبه الحافل يصحبه المساعدون والملاحقون والموظفون والحرس الخاص ، إلى الميناء لاستقبال السفير الجديد وتحيته باسم دولته .
وبعد أن نزل السفير وحيا مستقبله ، استقل مركبته فى موكبه الخاص إلى دار السفارة السويدية .

ثم أخذت المراكب المختلفة تنهياً للمسير ، ولم يكن هناك نظام
يحدد طريقة العودة ، وشوارع لندن ضيقة بحيث لا تسمح لموكبين
أن يسيرا جنباً الى جنب . وكان كل من ملك فرنسا وملك أسبانيا ،
قد أمر سفيره بأن يكون موكبه في طليعة سائر المراكب .

وعند مدخل الشوارع الضيقة ، حاول كل من السفيرين ، تنفيذ
الأوامر مليكاً ، أن يشق طريقه قبل الآخر ، فاصطدمت المركبتان
وبادر السفيران بالنزول في الحال ، وامتشق كل منهما حسامه ، وأخذ
يبارز زميله ، فانضم إلى كل واحد مساعده وموظفوه وحراسه ،
وكذلك رعاياه ، ودارت معركة استخدمت فيها السيوف والعصى .

وكان الانجليز يشهدون هذه المعركة وهم أشد ما يكونون اغتباطاً
وطرباً ، على أنهم ظلوا في موقف المحايدين وكانت المعركة متعادلة
فلم يتغلب فيها أحد على الآخر ، واستمرت كذلك بعض الوقت حتى
استعان سفير أسبانيا بفريق من بحارة نهر التايمز ، المتعطلين ، وكانوا
أشداء أقوياء ، وعلى استعداد لتنفيذ أى أمر لقاء أجر معلوم ،
فتناولوا مجاذيفهم ، وأخذوا يشبهون الفرنسيين ضرباً وتقتيلاً حتى
خارت قواهم . وبذلك انتصر سفير أسبانيا ، ومضى بموكبه في الطليعة
كما أمره مليكاً ، وتبعه موكب السفير الفرنسي ، وكانت مركباته تغص
بالجرحي والقتلى .

ووصل السفير الفرنسي إلى داره وهو شديد الحنق والغضب ،
وكتب تقريراً مفصلاً بالحادث ، بعث به إلى لويس الرابع عشر ،
ملك فرنسا القوي .

أما سفير أسبانيا فكان يزهر بانتصاره ، لأنه عند هذه المشاجرة
في أحد شوارع لندن موقعة حربية عظيمة . ومع أن الانجليز كانوا
يكرهون الفرنسيين فإنهم لم يعلقوا على الحادث بشيء ما ، وحافظوا
على حيادهم .

وإذ نرى الخبر إلى مسامع لويس الرابع عشر ، وكان متزوجا من
آن دوتريش ابنة فيليب الرابع ملك أسبانيا ، غضب أشد الغضب .
وهدد والد زوجته بإعلان الحرب عليه ، إذا لم يقدم الترضية الكافية .

وكان ملك أسبانيا مشتبكا مع البرتغال في حرب ضروس طويلة
أضعفت دولته ، وقضت على جميع موارده ، فلم يكن والحال هذه
قادرا على الاشتباك في حرب جديدة ، ولهذا فإنه سلم للملك فرنسا
بكل ما أراده منه ، وقرر إبعاد السفير فأنفيل ، مع أن كل جريمته أنه
عمل كل ما وسعه لتنفيذ أمر مولاه ، وكان أن أرسل سفيرا فوق
العادة إلى سان چيرمان ، حيث كان يقيم لويس الرابع عشر ،
ليخبره أن سفراء فرنسا سيكُونون دائما في الطليعة وفي المقدمة وإن
يتخطاهم أحد ما .

ووقع الحادث الثاني في روما خلال العام نفسه ، وتفصيل ذلك
أن « الدوق دى كريكى » كان سفيرا لملك فرنسا لدى البابا الكسندر
السابع ، وقد عرف عن هذا البابا أنه لا يحب الفرنسيين ، ولهذا كان
شقيقه ماريوشيجى ، يبذل كل ما في وسعه لإثارة الشعب الإيطالى
ضد فرنسا ، وقد نجحت محاولته إلى حد ما .

قام حرس البابا في أحد الأيام ، ويتألف من جنود كورسيكيين
ومعهم بعض الدهماء ورجال البوليس ، بمهاجمة قصر «قارنيس»
مقر السفير الفرنسي وفي نفس الوقت كانت موكبة السفير الفاخرة
تجتاز فناء القصر فهاجمت وقتل أحد خدم السفير
وهنا خرج السفير إلى الشرفة وأطل على المهاجمين لهددتهم ، فقابله
الحرس الكورسيكي بإطلاق غداراتهم .

وكان البابا في ذلك الوقت يتمتع بنفوذ عظيم وكانت له سلطة
روحية وزمنية لها شأنها وكان يحكم روما وبعض المدن المجاورة لها ،
وكان الملوك إذا أرادوا الشكوى من بعض تصرفاته يرسلون مندوبين
دبلوماسيين للتفاهم على كل ما يريدون .

وحينما سمع لويس الرابع عشر نبأ الاعتداء على ممثلة في البلاط
البابوي ، لم يشأ أن يتبع القاعدة المرعية ، وهي إيفاد مندوب من
قبله ليشرح وجهة نظره . بل يادر في الحال بالاستيلاء على «أقينيون»

• • •

ولقد أثر عناد هذا الملك الشاب في الدول الأخرى ، فأخذت
تخشى بأس فرنسا وتحسب حسابها واستغل ليون وزير الخارجية
الهام هذه الفرصة فعمل على توطيد السياسة التقليدية التي ترمي إلى
تقطيع أوصال الشعوب الأجنبية ، وفصم عرى الامبراطورية
الألمانية عن طريق عقد محادثات مع الأفراد المختلفين الذين يؤلفون
القوة الجرمانية الهائلة ، وترتب على ذلك أن أصبح ملك فرنسا يتمتع
بسلطة ونفوذ في جرمانيا أكثر من أمبراطورها نفسه .

على أن نفوذ ملك فرنسا وسلطانه الذى بلغ هذا الحد لم يثر فى بعض الشعوب أدنى اهتمام أو تقدير أو خوف ولا سيما شعوب البربر (الطوارق) فى شمال أفريقيا ، فإنهم كانوا خاضعين امسا لسلطان تركيا ، ومستقلين فعلا تحت سيطرة رؤساء طغاة مستبدين ، وكانوا يشتغلون بالقرصنة ، ولم يعرفوا لهم صناعة غيرها يعيشون منها ، فكانت سفن باى تونس ، و داي الجزائر تجوب البحر الأبيض المتوسط ومنه تتسلل إلى المحيط الأطلنطى وإلى بحر المانش فتستوقف السفن التجارية الضعيفة الحراسة ، وتعمل فيها السلب والنهب ، أو تستولى عليها وتأسر ملاحيهـا ، مما أدى إلى أن أصبح الألوف من البحارة المسيحيين من الفرنسيين أو من رعايا الدول الأوروبية يعيشون فى أرض أفريقيا المحرقة أو يجذفون فى سفن أسريهم وهم يضربون بالسياط التى تمزق أجسادهم .

هال لويس الرابع عشر هذا العمل الشنيع ، فقرر أن يقضى على أوكار القرصنة التى أثارته الفزع والالام والحزن فى أوربا ، فرأى أولا أن يرسل حملة تأديبية إلى ساحل بلاد الجزائر ، ولما وصلت الحملة حاول الجنود النزول إلى الشواطىء ، ولكن البربر كانوا أحسن سلاحا وأقوى عتادا ، كما لم يستطع الجنود الفرنسيون احتمال مناخ هذه البلاد فلم يحاولوا التوغل فى البلاد وأخذوا يضربون المدن الساحلية بالمدافع ويفرقون سفن داي الجزائر وباي تونس ، وحاصروا السواحل الإفريقية .

تمت هذه العمليات بكل سرعة ونشاط ، خاف الداي على مصيره
وخشى بأس فرنسا فصمم على عقد معاهدة مع مليكها ، وأخذ
ببحث الموضوع فوجد بين الأسرى ضابط فرنسى يدعى « باينيه » ،
فبعث به إلى فرنسا بعد أن جعله يقدم له أنه سيعود إذا فشلت مفاوضاته
فى عقد المعاهدة المرغوبة ، وهدده بقتل ستمائة أسير فرنسى من رفاقه
إذا لم يبر بوعده .

ورحل « باينيه » إلى فرنسا ولما وصل اليها مثل بين يدى الملك
فى سان جرمان وعرض عليه مقترحات الطاغية الافريقى وأحاطه علما
بتهديداته ، وغضب لويس الرابع عشر وقرر الا يتفاوض وطلب إلى
باينيه ألا يعود كما وعد لأن الموت ينتظره هناك بلا شك ، ولم يوافق
باينيه لأنه قد أقسم بأن يعود من جهة ومن جهة أخرى فكر جدياً
فى مصير زملائه فى الأسر ، الذين هددهم الداي الجبار بالإعدام ، إذا
لم يعد .

ورجع باينيه إلى الجزائر وأبلغ الداي بكل ما حدث ، فغضب
أفشل المفاوضات وقطع رأسه . على أن مصرع هذا البحار البرى لم
يذهب هباء فقد أثار ضباط وبحارة السفن التى تحاصر سواحل تونس
والجزائر فنشطوا فى القتال بتأثير الغضب الذى تملكهم وهاجموا المدن
وضربوها ، فسلبت لهم حامياتها كما استسلم البربر فحرروا الأسرى
الفرنسيين وكانوا يبلغون ثلاثة آلاف رجل ، وذلك فى سنة

وبذلك قضى لويس على القرصنة ، وأضاف لمجده مجدا آخر .
في هذا الوقت توفي فيليب الرابع ملك اسبانيا وخلف لوراثته
العرش طفلا ضعيفاً أنجبته من زواجه الثاني .

كانت اسبانيا تملك مستعمرات عظيمة في امريكا الجنوبية وكان
لها في أوروبا شبه جزيرة ايبيريا والأراضي الواطئة (باجيكاهوولاندا)
واقليم الفلاندر في شمال فرنسا .

عقب وفاة فيليب طالب لويس الرابع عشر اسبانيا بهذه المقاطعات
الفلمنكية من ميراث ، شارل الثميرير ، ، على اعتبار أنها تخص
زوجته ماري تيريز دوتريش .

ولكن تقايد هذه البلاد كانت تقضى بأن يكون الوارث من
الزواج الأول وحده دون الزواج الثاني حتى ولو آلت الوراثة إلى
سيدة . وكان هناك تنازل ماري تيريز في حقوق أبنائها بمقتضى صلح
بيرينيه ، وكان هذا التنازل متوقفاً على أن يدفع لها بائنة كبيرة
(دوطه) . وبما أن هذه البائنة لم تدفع إطلاقاً ولم يهتم أحد بالمطالبة
بها ، فقد أعلن لويس الرابع عشر أنه سيستولى على ما يجب أن يؤول
إليه شرعاً ، ولم يفعل ذلك عن رغبة وقتية أو نزعة معينة أو تعطش
للغزو وإنما لسلامة بلاده ، فإن حدود فرنسا المتاخمة للأراضي الواطئة
كانت ضعيفة ومزعزعة ، وكان المنطق يقضى بأن يضم إلى فرنسا
البلاد التي يرتبط سكانها مع فرنسا بروابط الجنس واللغة والعادات .
فمن أجل ذلك ، نشبت الحرب التي أطلق عليها اسم حرب الأيلولة .

(١٦٦٧ — ١٦٦٨) وكانت حرباً قصيرة الأجل انتصرت فيها فرنسا انتصاراً ميبناً .

رأى لويس الرابع عشر أن يكون على رأس جنوده ، نخرج من قصر سان جرمان بكل مظاهر العظمة والجلال كما لو كان يقوم برحلة عادية للهو والمتعة ، مستصحباً معه أسرته وحاشيته . واستقبل الشعب الأسيرة المالكة في كل مكان بحفاوة بالغة وهتافات مدوية .

وعندما بدأ القتال ، أبدت بعض الحاميات الإسبانية مقاومة عنيفة ، فما كان من الملك إلا أن ترك الملكة والأميرات في مكان أمين ، وامتشق حسامه وارتدى درعه ووضع الخوذة على رأسه وظهر في وسط جنوده ، فألهب حضوره بينهم حماسهم ، وقوى عزائمهم ، وكان هو نفسه محارباً مقداماً تعلم الفنون الحربية على يد تورين ، وقوبان ، فلم يمض وقت طويل إلا وسلبت حامية «تورناي» خيما الشعب الملك الظافر أجمل تحية ، وحدث مثل هذا في «دواي» ، ولم يبق إلا موقع واحد في المنطقة وهو «ليل» .

كانت هذه المدينة الوالونية العظيمة قوية التحصين ، يتولى الدفاع عنها خمسة آلاف جندي نظامي وخمسة عشر ألفاً من المتطوعين المدربين على حمل السلاح ، وعمد الكونت دي برواي قائد الدفاع عن المدينة إلى إثارة سخط طبقات الشعب ولاسيما طبقة «البورجوازي» (أصحاب الأعمال والأموال) على فرنسا . وأدخل في روعهم أن

لويس الرابع عشر سيقضى على الحرية التي يتمتعون بها وبهذه الدعاية استطاع أن يملك زمامهم فانقادوا اليه واقسم النبلاء أمامه بأنهم يؤثرون الموت على التسليم للفرنسيين .

وكان سكان ليل وحاكمها شديدي الثقة بقوتهم وبمناعة مدينتهم فوضعوا أمام دار البلدية جوادا من الخشب وأمامه العلف وبجواره لافتة كتبت عليها هذه العبارة : سيأكل الجواد العلف قبل أن تسلم المدينة .

ولم تمنع تحصينات المدينة لويس الرابع عشر عن العمل فضرب الحصار حولها ، ولكن حاكمها بعث برسول الى الملك يطلب منه أن يختار لاقامته الشخصية أحد المنازل الجميلة في الضواحي ، وعين له منزلا منها لكي يمنع جنوده من اطلاق النار نحوه .

أمر الملك رسول الحاكم بإبلاغ شكره وتحياته إلى الحاكم على كرمه وحفاوته وصرح له بأنه سيقوم مع جنوده في كل خيمة وكل معسكر .

كانت مقاومة د ليل ، عنيفة وقاسية ، وكان الملك يمضي النهار الخنادق ، وذات يوم وصل الى مكان في خطوط القتال شديد الخطورة لتعرضه المباشر لنيران الأعداء ، فنصحته رجاله أن يتراجع محافظة على حياته وحياتهم ، وتقدم منه دوق د شارو ، قائد حرسه العجوز وهمس في أذنه قائلا : اعد النيذ وعليكم أن تشربوه .

فانصرف الملك من مكان الخطر وواصل أعماله فزار الجنود وقتش

المسكرات بدقته المألوفة . ولما عاد إلى مقره في ضاحية و ييخواك عاتق شارو وهز زراعاه بقوة لأنه عرف كيف يفضل الشرف على الحياة واستمر الحصار العنيف طويلا . وذات صباح من شهر اغسطس سنة ١٦٦٧ دخلت الجنود الفرنسية مدينة ليل المنيعه تتقدمها الموسيقى وحملة الاعلام . فاستقبلها رجال الدين في ميدان البلدية ، حيث كان الجواد الذى لم يأكل العلف بعد .

وأخذ و قربان ، يعمل على تقوية المواقع التى يصل اليها جنوده ، وأتم سلسلة من الحصون القوية تضمن لفرنسا السلامة والأمان واستقبل سكان الفلاندر لويس الرابع عشر بكل حفاوة و اكرام فوعدهم بأن يحافظ على امتيازاتهم وحقوقهم .

وكان الأسبان يرثون في فرنسا عن و شارل تميير ، مقاطعة فرانش كونتيه بمدنيتها الكبيرتين بيزانسون ودول ، فصمم لويس على غزوها أيضا .

وكانت حامية بيزانسون تتألف من ألفى جنسدى أمباني أبدوا مقاومة عنيفة كما قاومت حامية دول بكل شدة حتى اعتقد أنه من العسير الاستيلاء عليها ، ولكن الكونت و دى جرامون ، استطاع أن يصل إلى الميدان الرئيسى متكررا ، فاتصل بالبرلمان وأعضاء المجلس البلدى وعرض عليهم أنه من مصلحتهم التسليم إلى الملك المحافظة على كل شيء . فاقنعوا برأيه وسلموا ، ولم تلبث المدن الأخرى في المقاطعة أن سلت أو احتلت .

ومما يجدر ذكره أن مدينة « جراى » كانت تريد التسليم ، ولكن طبقة البورچوازية كانت تخشى القائد الأسباني فظهر الأب دى قانجيل شقيق سفير أسبانيا ، وكان رجلا غريب الأطوار حقا ، فنظم ثورة فى المدينة أجبرت قائدها على التسليم .
وبعد خمسة عشر يوما من قيام الحملة كان قد تم اخضاع كل مقاطعة فرانش كوتيه .

وانتهت الحرب بمعاهدة اكس لاشابل فى ٢ مايو سنة ١٦٦٨ التى منحت فرنسا امتيازات عظيمة وضمنت لها فى الشمال حدودا محصنة منيعة .
وعكف الملك ووزرائه على تنظيم الأملاك الجديدة التى ضمت لفرنسا ولما كانت فى الأصل فرنسية قلبا ولغة ، فقد اندمجت بسهولة مع الدولة الكبرى .

أوروبا بعد معاهدة اكس لاشابل

تولى عرش أسبانيا بعد فيليب الرابع ابنه الضعيف تحت رعاية أمه وهى نفسها كانت طبقا للنظام والعادات الأسبانية تحت سيطرة رجال الدين ، وأخذت الدولة فى الضعف والانحلال ، وساهمت الهزائم الأخيرة بنصيب كبير فى اضعاف منزلتها بين الأمم .

وكان أمبراطور ألمانيا عديم الهبة وقليل النفوذ فى أمبراطورية شاسعة مقسمة إلى مقاطعات لاحصر لها مشتبكة فيما بينها بحروب مستمرة يشنها الأمراء لأسباب سياسية ودينية ، ومهددة بالأتراك العثمانيين الذين وصلوا إلى أبواب فينا ، حتى طلب الأمبراطور من

ملك بولونيا الدفاع عنه — في حين أن لويس الرابع عشر كان يتمتع في ألمانيا بسلطة كبيرة وله فيها مساعدون وأنصار أقوياء .

وكانت إنجلترا تحت حكم شارل الثاني ، قد استطاعت أن تحافظ على قوتها التجارية ، واسكتها أخذت تضعف من الناحية السياسية ، لأن شارل الثاني ، وهو من أسرة ستيوارت كان في خلاف مستمر مع البرلمان ، لأنه كان يتلقى أموالا من ملك فرنسا — فأثر أن يبقى حليفا للويس الرابع عشر . ولو أن الشعب الإنجليزي كان عدوا للفرنسيين بدافع الحقد اثرائهم . فلكي يحافظ شارل على عرشه كان يتظاهر أحيانا العداء لفرنسا ، وهو يرتعد خوفا من فقد الإعانات التي يتلقاها منها . وأما هولاندا فكانت مؤلفة من مقاطعات سلخت عن أسبانيا ، وقد أصبحت جمهورية ، أو بمعنى أدق عبارة عن اتحاد من جمهوريات صغيرة بورجوازية — بلاد تجار أغنياء لأنها كانت تملك أسطولا عظيما يسمح لها بالتجارة في كل أنحاء العالم ، وهذه البحرية التجارية تعتمد على حماية أسطول حربي هائل ، فكثير فيها الأغنياء الذين لم ينسهم المال الوفير من التمسك بالفضائل الدينية والأخلاق القويمة — وقد أقبل أبناء تجار امستردام والمدن الناشئة الأخرى على الوظائف العسكرية بدافع الغرور وحب الظهور ، وإنما كانوا يهملون واجباتهم لأنهم كانوا يتركونها إلى مساعدين غير أكفاء ، ومع هذا بقيت هولاندا من أعظم دول أوروبا ثروة ونشاطا ونفوذاً .

وأظهرت هولاندا في كثير من المناسبات عداءها للسافر لفرنسا

ولو أنها كانت حليفة لها يوما ما — فرأى لويس الرابع عشر أن الوقت قد حل لاختضاعها وإنما كان لزاما عليه قبل الاقدام على هذا العمل التأكد من حياد بريطانيا ان لم يكن مساعدتها .

وقام بدور الوساطة بين بلاط فرساي وبلاط سان جيمس سيدة فانتة لبيقة هي الأميرة هنرييت أخت ملك انجلترا وزوجة شقيق ملك فرنسا . وذهبت الأميرة إلى لندن واستطاعت أن تؤثر على شارل الثاني وحصلت منه على وعد أكيد بأن الانجليز لا يساعدون الهولنديين بحسب بل ويحاربون في صفوف الفرنسيين فكان هذا انتصارا ديبلوسيا عظيما للأميرة الشابة اغتبط له ملك فرنسا أيما اغتباط .

وأخذت تزهر بانتصارها وجمالها وغمرها الملك بكل عطفه ورعايته واهتمامه حتى أنسته زوجته الملكة الخجول — ولم يمض وقت طويل على هذا الحال حتى ذاع الخبر في أرجاء فرساي أنها توفيت فعم الوجوم والحزن وشاع بين الحاشية أنها ماتت مسمومة ، لأنه في ذلك الوقت كثر استعمال السم لقتل الناس فكثير الحديث عن السموم التي أطلق عليها اسم مسحوق الوراثة ، وحدثت حوادث من هذا القبيل في كل مكان . واتهم بالجرمة أصدقاء دون دورليان ، ولكن التشريح الذي اشترك فيه أطباء باريس وأشهر الجراحين الانجليز أثبت أن الوفاة طبيعية .

تأثر الملك كل التأثر وشاركه في شعوره كل البلاط ، لأن الأميرة كانت بهجة الحفلات ، أما زوجها فقد أظهر فلسفة غريبة في التعبير عن حزنه .

الباب التاسع

لويس الرابع عشر العظيم

كان لويس الرابع عشر يعرف النظام بكل معنى الكلمة ، وكان يكره أن يتدخل في شئون الدولة أى فرد من أسرته أو أى شخص لا يحترف السياسة على الأخص السيدات ، ولم يشذ عن هذه القاعدة إلا مرة واحدة عندما كلف الأميرة هنرييت الانجليزية بالمفاوضة مع أخيها ملك إنجلترا في موضوع حيادها عندما تعلن فرنسا الحرب على هولاندا ، وقد نجحت الأميرة في مهمتها ، ومع أنها لم تعيش الا قليلا بعد هذا النجاح إلا أن ملك إنجلترا تمسك بالعمود التي قطعها على نفسه وعقد محالفة مع ملك فرنسا .

وكان ملك فرنسا مطالعا على الدسائس التي يدبرها ضده الهولنديون لأنهم إذ يعتمدون على التجارة كانوا ينظرون بكل خوف وحسد الى نمو التجارة الفرنسية ومنافستها لهم ، كما أن اتساع الملاحة البحرية الفرنسية وإزدياد قوة الأسطول الفرنسي سيؤدي حتما الى الاستغناء كلية عن السفن الهولندية في استيراد المواد التي تحتاج اليها من الخارج وتصدير منتجاتها إليه .

فاذا ما جاهرت هولاندا بالعداء لفرنسا فأثمها يجب أولا أن

تضمن أن تتحاز إليها نصف أوروبا على الأقل لأنه من الواضح أنها
لا يمكن أن تتحازف بالهجوم قبل أن تعقد معاهدات مع حلفاء لها
كان لويس على علم بكل نوايا هولاندا ، وزيادة على ذلك كان
يعرف تماما أن عرش شارل الثاني مزعزع ، وأن حكم آل ستيوارت
على وشك الزوال ، وفي هذه الحالة تتفاقم الأحوال ولا يجد العون
الذي وعده به شارل هذا ، فرأى بشاقب نظره أنه من الأصوب أن
يبدأ بالهجوم ، فأعلن الحرب على هولاندا في ٦ أبريل سنة ١٦٧٢



لويس الرابع عشر يحتاز الراين

وفي ٢٨ منه ترك سان جرمان وذهب على رأس جيشه الى القتال
بدأت الحرب بعمل جرىء خلده اللوحات التذكارية والنقوش
وسجلات العصر وكان هذا العمل عبور نهر الراين .

والراين نهر عظيم وعميق ، وعليه حصون قوية ، واجتيازه
بلا شك عمل جرىء يشبه أعمال الأساطير ، وقد اجتازه لويس
تحت نيران الأعداء الحامية ، فلا غرو إذا تغنى شعراء العصر بهذا
الغزو الجريء — واعتقد أن احتلال الأراضي الهولندية من السهولة
يمكن فتنهى الحملة الحربية باحتلال امستردام في أقصر وقت ، ولكن
حدثت اخطاء حربية عظيمة أدت الى تفاقم الأحوال .

تألف هولندا من سهول عظيمة تحت مستوى سطح البحر تحميها
سدود قوية وتوجد في ميودان ، الأهوسة التي تحمي امستردام ،
فكان لا بد أولاً من الاستيلاء بكل سرعة على ميودان مدخل
ميناء امستردام . وتأخر لويس في اعداد مواقعه وتحصينها لأنه كان
يجهل قوة الجيوش الهولندية الحقيقية فلم يجرؤ على أن يجازف بجيشه
في بلاد العدو .

أشار الكونت دستراد الذي كان سفيراً لفرنسا في هواندا الى
خطأ العمليات الحربية فرأى الملك لويس الرابع عشر أن يعمل على
عجم عود القوات الهولندية ، فأرسل قوة استكشافية الى الشمال
وصلت الى أترخت دون أن تصادف أدنى مقاومة ، وفي عودتها لم
يشأ قائد القوة أن يقوم بأي عمل حربي قبل أن يعرف طبيعة المكان ،

فبعث بفرسانه الى كل الاتجاهات ووصلت فصيلة صغيرة منهم أمام ميدون فاستولى الذعر على كل المدينة ، ولما لم يجد النواب والقضاة حولهم جيشا للدفاع عنهم ، حملوا مفاتيح المدينة وسلموها الى الفرسان وهؤلاء أخذوها بكل زهو ونخار وتبعوا القضاة الى ميدان المدينة وهو المكان الذى أعد للاحتفال بتسليمهم المدينة وهناك احتق بهم السكان ايماء احتفاء وتعالى الأعيان فى اكرامهم وبجاملتهم لكي لا يلحق بهم أدنى ضرر من جيش الملك القوى الذى يتبعهم — وحل الليل ولم تصل القوات الفرنسية فاستعداد الأهالى شجاعتهم وبعثوا برسلمهم الى امستردام فى طلب العون واستمروا فى اكرام الفرسان وتقديم الطعام والشراب لهم ، فلما ثملوا ألقوهم خارج المدينة ووصل جيش هولندى احتل ميدون وأمر القائد الشاب جييوم دورانج الذى انتخب الرئيس السياسى والحربى وهو لما يتجاوز الثانية والعشرين بفتح السدود فطنفى الماء على السهول وأغرق هولاندا الوسطى وبذلك انقذت من احتلال الفرنسيين لها .

كانت محنة قاسية حلت بالهولنديين فقد ضحوا بأغنى المراعى والأراضى ، وإنما قبلوا هذه التضحية من أجل المحافظة على استقلالهم وأقبلوا على الانخراط فى سلك الجندية والتدريب على الحرب والقتال على قدر الإمكان وهكذا نشأ تحت حماية البحر جيش برى قوى ، وظهر فى بادى الأمر أن الحرب تسير لمصلحة هولاندا وشجعها على المضى فيها انضمام الإمبراطورية وأسبانيا إليها .

لم يعبأ لويس الرابع عشر بهذا التحالف الموجه ضده ، ولم تن عزيمته بل عمل على بث الهمة والنشاط في جيشه فاستطاع أن يحرز انتصارات باهرة على الحلفاء واستولى بنفسه على ما يسترخت ، وهو موضع حصين هام ، ولو أنه فقد في هذا القتال قائده المغوار دارتنيان ، وسجل تورين انتصارا مبيتاً في الألراس ، فكان أن انتقل البلاط الفرنسي كله إلى مسرح الحرب ، وتحمل في رحلاته كثيراً من الصعاب والمشاق وصفتها إحدى الأميرات في مذكراتها التي نقتطف منها ما يلي :

كثيراً ما كانت الملكة والأميرات والسيدات تقنعن بالإقامة في الأكواخ الحفيرة الخربة أو في المنازل المهجورة ، وذات يوم أمكن بكل صعوبة العثور في مدينة رينوفيليين على مكان لهن في قصر الكونت دى لاريوبير ، ووصلت الأسرة المالكة إلى القصر في الليلة التي فقد فيها صاحبه أحد أقاربه ، وطبقاً لعادات البلاد تستمر الصلاة الجنائزية إلى وقت متأخر من الليل ، وحرص صاحب القصر ألا يحرم من شرف إيواء الملكة ، فوضع بسرعة الجثة في قنطرة في الغرفة التي خصصها لمبيت الملكة ، فقضت ليلتها بجانب هذا القمطر دون أن تعرف ما يحويه .

وكانت الملكة تيريز دو تریش لانهم سواء في الرحلات أو في القصر بضرورة توفير وسائل الراحة والترف . فيكفيها أن تلازمها وصيفتها الأسبانية د لاملينيا ، لتعدها طعام بلادها الأصلية الذي تفضله على

أصناف الأاطعمة الفرنسي ، وبذلك تكون راضية كل الرضا .
ولقد ساهمت الأحوال الجوية السيئة في عرقلة سير الجيوش
الفرنسية وكأنما السماء حالفت الهولنديين أيضاً فكانت تفتح أفواها
كالقرب وتنصب عليها أمطاراً غزيرة مدرارة فكان ميدان العمليات
الحرية مغموراً بالمياه مما جعل نقل المدافع وعربات المؤن والذخائر
من أشق الأمور ، ولكن بفضل تنظيمات لوقوا كان كل شيء يسير
دون مشقة ، فلم يعوز الفرق المحاربة أى شيء وكانت المدافع
والإمدادات تصل إلى الميادين في الوقت المطلوب ، وكان هذا موضع
غفر الفرنسيين ، وثقتهم بالنصر النهائي ، وبحل سخط وحنق الأعداء
وقبل انتهاء الحملة عادت الأسيرة المالكة إلى فرساي ، وبعد
وصولها رأى تورين قائد الجيش التوجه لزيارتها في باريس ، ورحل
من الازاس في موكب من مواكب النصر الحافلة .

في أثناء غياب تورين عن مقر قيادته كان « مونتيكوكولى » ،
قد تولى قيادة جيوش الأعداء القوية ، فنظم خطوطه ومواقعه ،
فلما عاد تورين إلى مقر قيادته وجد أمامه عملاً شاقاً فدارت معارك
طاغية على الراين ، واستبسل تورين وجيشه في الحرب حتى أمكنه
أن يحاصر جيش خصمه القوى ، وقال عندئذ جملة لها معناها ولم
يكن مخططاً فيها : « لقد أوقعتم في يدي ولن يستطيعوا
الإفلات منها » .

رابطت القوات الفرنسية أمام « سالزباخ » ، وبينما كان القائد

الفرنسي يتفقد مواقع البطاريات صوب نحوه الأعداء. نيرانهم بكل قوة من كل حذب وصوب ، ولم يعبأ بشيء واستمر في عمله ، فأسرع إليه أحد مساعديه وحذره قائلاً : إرجع عن طريقك فان النار تصوب إلى المكان الذي تتجه إليه . أجاب الماريشال تورين : نعم ، أنت على حق فاني لا أريد أن أبقى حتى اليوم .

وبينما كان يتأهب للرجوع قدم الجنرال د دوسانت هيلير ، قائد المدفعية ممسكاً قبعته في يده ، ورجاه أن يلتقي نظرة على إحدى البطاريات ، وفي هذه اللحظة أصابت الماريشال رصاصة طائشة ، فأصابت منه مقتلاً ، كما أطاحت بذراع القائد التي كانت تحمل القبعة .

وتحامل الماريشال على نفسه وحمله جواده إلى مقر قيادته ، فلما رآه ضباط أركان حربه منحنيًا على سرج جواده ظنوه مصاباً بجرح بسيط وأسرعوا نحوه يستوضحونه الأمر ، ولكنه فتح عينيه وأغمضهما مرتين ثم لفظ النفس الأخير ، فحملت جثته بين الحزن الشامل وصاح الجنود قائلين : توفي أبونا البار . لقد هلكنا .

وعندما أبلغ جندي هارب من الخدمة هذا النبأ إلى مونتيكو كولي قائد جيوش الحلفاء اغتبط كثيراً ولكنه بعد أن فكر قليلاً خلع قبعته احتراماً لخصمه المتوفي وقال لمن حوله : لقد مات رجل يشرف الرجل .

لم يحزن الشعب الفرنسي على رجل من قبل كما حزن لوفاة تورين

ونقلت جثته إلى باريس حيث خيم الحزن على الجميع ، فكان كل فرد فيها يعتقد أنه فقد أعز شخص إليه ، وكان الملك أشدهم حزنا وأسى وأمر بأن يكرم قائده فأقيمت له جنازة شعبية هائلة ودفن في مقبرة الملوك في سان دنيس .

لم يستطع ضباط تورين مواصلة القتال بشجاعة وصر كما كانوا معه ، فكان لزاما أن يتولى القيادة قائد جرىء حازم فأُسندت إلى كوندبه الذى كان خصم تورين في حرب القرون ، كما عاد الملك إلى القتال وسار على رأس الجيش ملهياً حماسه فاستولى على فالنسين ، وجاند ، وايبير ، وفي نفس الوقت أحرز المارشال دى لوكسمبرج انتصارات حاسمة كما قهر «دوكين» أسطول الأعداء القوي .

وانتهت الحرب بصلح «نيميج» سنة ١٦٧٨ الذى وطد السلام في كل أوروبا ومنحت باريس الملك لقب «العظيم» وأصبح أعظم ملك في أوروبا في عصره فقد بلغ أعلا ذرى المجد .

وزاعت شهرة لويس الرابع عشر في أقصى دول العالم فأخذ رؤساؤها يتوددون اليه ويعملون على توطيد علاقاتهم معه فكانوا يبعثون بسفرائهم إلى فرساي ليعبروا عن إعجابهم وولائهم له ، حتى إن ملوك الزوج في أفريقيا وملك سيام وقصر روسيا أرسلوا مندوبين يحملون اليه الهدايا الثمينة التى تنم عن الإخلاص والتقدير . وكانت تقام لهذه الوفود الأجنبية حفلات استقبال وتكريم على غاية الروعة والابهة بقصد التأثير فيهم حتى ينقلوا إلى دولهم صورة ناطقة عن

عظمة فرنسا فيكونوا خير رسل للإشادة بمجدها والتحدث عن قوتها وجاهها ، وتأثر الملك أيضا بهذه المظاهر حتى اعتقد أنه يستطيع أن يحقق كل ما يطرأ على مخيلته وأن لا شيء يمكن أن يقف في طريقه ليحول بينه وبين ما يريد .

وأظهرت جنوا في وقت ما عدائها لفرنسا فأمر لويس الرابع عشر بتدمير المدينة وحتم أن يأتي الدوج بنفسه إلى فرساي ليعلن استسلامه وخضوعه ولم يحدث إطلاقا أن ترك دوجات جنوا مقر حكوماتهم لأن دستور الجمهورية يمنعهم من مغادرتها إلى الخارج لأي سبب كان ، ولكن هذا الدوج رضح لمشية ملك فرنسا حتى لا تتدمر المدينة كما أمر فرحل إلى فرساي حيث استقبل بكل احترام وإكرام ، ورحب به الملك بنفسه كل ترحيب فتفاهما وزال كل خلاف وعبر الدوج للملك عن منتهى ولائه وإخلاصه ، وبعد أن خرج من غرفة الملك سأله أحد رجال حاشية فرساي عما حاز إعجابه في هذا القصر الهائل .

فأجاب الدوج بكل بساطة قائلا : وجودي فيه ..

وأخذ لويس الرابع عشر يبحث في السجلات والوثائق عن الاقطاعات التي كانت تملكها فرنسا ولو من أجيال بعيدة وسلخت عنها والتي يعتقد أن أعادتها لفرنسا ضروري لتوطيد الأمن والسلام على الحدود ، وبكل سهولة أعلن ضم مدينة استراسبورج العظيمة إلى فرنسا ، ويعتبر هذا الضم أعظم كسب لفرنسا لأنها استولت على العاصمة الطبيعية للإلزاس دون أن تطلق رصاصة واحدة ، وبعد ذلك عمل

قوبان على تقوية حصونها حتى يسهل الدفاع منها وبعد أن أتم عمله قال
بزهو وغفار : لقد أصبحت فرنسا ممنوعة على الألمان ،

وبقيت دولة في أوروبا لم يرنو إليها الملك ببصره بعد ، وهي
إيطاليا وبعد بحث واستقصاء وجد أنه لا بد وأن يحتل مواقع معينة
لكي لا يقال عنه أنه ليست له أملاك في إيطاليا وهذا يعتبر في نظره
عارا أو ضعفا يجب القضاء عليه لكي يخلو من أى نقص أو نقطة
ضعف ، فقرر أن يستولى على مدينة كاسال ، وكانت تخص
« دوق مانتوا » .

وكان هذا الدوق في حاجة الى مال فرأى أن يبيع المدينة ، ووجد
لويس الفرصة لتحقيق غرضه فقرر شرائها ودفع سرا مبلغا كبيرا إلى
وسيط يدعى ماتيولى كان موضع ثقة دوق مانتوا ، ولكنه أخذ
المبلغ لنفسه واطلع ملوك أوروبا على الموضوع ، فغضب لويس وصمم
على الانتقام من هذا الخائن بأن أرسل بعض رجاله ليختطفوه
فتنجحوا في مهمتهم وأمكنهم أن يوقعوا الرجل في شرك نصبوه له
وقبضوا عليه وسجنوه في قلعة « بينيرول » ، وفيما بعد نقل منها إلى
جزائر سانت مرجريت ومنها إلى الباستيل .

وفي أوائل سنة ١٦٩٧ استقبل بلاط فرساي ابنة فيكتور اميدى
دوق سافوا ، وكانت أميرة فائقة ، قدمت إلى فرنسا لتعمل على
توطيد السلام بين الدولتين وعلى عقد معاهدة تحالف وصداقة بينهما
ورؤى أن السبيل الوحيد لتحقيق هذه الأغراض هو زواجها من دوق

بورجونيا أكبر أحفاد الملك الثلاثة وتليد فينيلون ، وكان في سن الخامسة عشرة ، مجتهدا ، طيبا ، خجولا ، ومحبويا من الجميع . وعليه تلقى أجمل الآمال وأعظمها

وكانت أميرة ساقوى في الثانية عشرة . شديدة الذكاء ، راجحة العقل ، ناضجة الوعى

ودهشت كثيرا عندما رأت قصر فرساي الساحر ، ولاحظ عليها رجال البلاط ذلك فنفثوا في إرضائها ، وأقيمت تكريما لها حفلتان راقصتان كبيرتان ، ومثلت أمامها إحدى الأوبرات الجميلة ، وأقيمت ألعاب نارية بديعة ، ومع توخي الاقتصاد في النفقات ، كانت الحفلات في غاية الإبداع .

وأقامت الأميرة في القصر تحت رعاية مدام دي مانتيفون ، لتتقن اللغة الفرنسية وتعود على التقاليد والحياة الفرنسية .

وفي ٧ ديسمبر سنة ١٦٩٧ ذهب الملك وولى العهد ودوق ورجونيا وكل الحاشية في الصباح الباكر الى الأميرة الصغيرة حيث كانت الوصيفات تقمن بتزيينها لحفلة القران فلما تم كل شيء سار الموكب في الأروقة الى كنيسة القصر حيث عقد الكاردينال « كوازين » الزواج ، وخصص اليوم كله لاستقبال الزائرين والمهتئين ، وفي المساء

أقامت وليمة عشاء كبرى دعى اليها ملك وملكة إنجلترا ، اللذان
كانا قد خلعا عن العرش فذهبا إلى فرنسا وأقاما في سان جرمان
وكرّرت الحفلات حتى كان من الصعب على الأميرة أن تواصل
دراستها حسب المنهج الذى وضعت لها مدام دي مانتينيون .

